بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد في سبيل الله

أبو الأعلى المودودي

الجهاد في سبيل الله

لقد جرت عادة الإفرنج أن يُعبِّروا عن كلمة " الجهاد " " بالحرب المقدسة " " Holy War " إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم. وقد فسروها تفسيراً منكراً وتفنَّنوا فيها وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموَّهة الملفَّقة، وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة " الجهاد " عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلقِ والهمجية وسفك الدماء.

وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة : " الجهاد " تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلتة سيوفها متَّقدة صدورها بنار التعصب والغضب، متطايراً من عيونها شرار الفتك والنهب، عالية أصواتها بهتاف " الله أكبر "، زاحفة إلى الأمام، ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين : إما أن يقول كلمة " لا إله إلا الله " فينجو بنفسه، وإما أن يُضْرَب عنقه ؛ فتشخب أوداجه دماً.

ولقد رسم الدهاة هذه " الصورة " بلباقة فائقة، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع، وكان من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها :

" هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شَرَهٍ إلى سفك الدماء وجشع إلى الفتك بالأبرياء ".

والعجب، كل العجب، أن الذين عملوا هذه الصورة وقاموا – بما كان لهم من حظ موفور – في إبرازها وعرضها على الأنظار ؛ هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة، وإطفاءً لأوار مطامعهم الأشعبية. وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم، وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها ويستبدّوا بمنابع ثرواتها دون أصحابها الشرعيين، ويفتشون عن المناجم وعن المعادن وعما تغلُّه أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم.

يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه، وبين أيديهم الدبابات المدججة، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة، يقطعون على البلاد سُبُل رزقها، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة، يريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التي لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراماً.

فلم تكن حروبهم في " سبيل الله " ؛ وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة، وأهوائهم الذميمة، ومطامعهم الأشعبية. وإنْ تعجب فعجبٌ حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة لم يكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز في أرضها، أو أنها كانت تملك تربة خصيبة تغل أنواعاً من الحبوب وخيرات الأرض.

وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فبحسبها ذنباً أنها يمكن أن تكون سوقاً لبضائعهم نافقة، أو مستعمرة لبني جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظَتْهُم.

وأدهى من كل ذلك وأمرّ أنهم كثيراً ما يغيرون على بلاد آمنة مطمئنة بمجرد أنها تقع في طريقهم إلى بلاد قد استولوا عليها من قبل، أو يريدون الآن أن يستولوا عليها ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم.

هذه هي حال الذي يصموننا بالغزو والقتال. والذي سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة. أما أعمالهم المخزية هذه ؛ فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم المتحضر المتمدن.

وأي بلاد الله، يا تُرى، قد سَلِمَتْ من عدوانهم وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسيا وأفرِيقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟ لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة، وأبدؤوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع قد سحب ذيل النسيان على صورهم الدميمة، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا. فما أعظم دهاءهم ! وما أبرعهم في التزوير والتمويه ! أما سذاجتنا وبَلَهُ رجالنا، فحدّث عن البحر ولا حرج.

وأي بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة، وما دار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدي الأثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة، وأن نبحث عن الأقلام الخفية التي تفننت في تمويهها وزخرفتها. وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة، وعدنا نعتذر إلى القوم.

نُبدّل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ونقول لهم : " ما لنا وللقتال أيها السادة ! إنما نحن دعاة مبشرون ندعو إلى دين الله، دين الأمن والسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، نُبلّغ الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة.

هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص.

أما السيف والقتال به، فمعاذ الله أن نمتَّ إليه بصلة، اللهم إلا أن يقال إننا ربما دافعنا عن أنفسنا حيثما اعتدى علينا أحد. ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة. أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً.

ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد " رسمياً " ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف عمله، حتى لا يقلق بالكم ولا يُقض عليكم المضجع. فما " الجهاد " اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم، وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام. أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها فأنتم أحقّ بها وأهلها.

هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها في ما تقدم. لكنا إذا أمعنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة " الجهاد في سبيل الله " واسْتِكْنَاه سرها على المسلمين أنفسهم، فضلاً عن غير المسلمين، لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مَهمين لم يسبروا غورهما، و لم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة.

فالأول : أنهم ظنوا أن الإسلام نِحلة (ترهُّب، تديُّن) بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة " النِّحلة " (Religion) عامة.

والثاني : أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذي تُستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال.

فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوّه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن وعاقهم عن إدراك مغزى "

الجهاد " الإسلامي، بل الحق، والحق أحق أن يُتَّبع، أن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الإسلامي بأسره، وقلب الأمر ظهراً لبطن، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة.

فالنِّحْلة (١)، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم، لا يُراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر.

ولا جرم أن النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية، فأنت حر في ما تختاره من العقيدة، ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك، وإن أَبَتْ نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً إلى عقيدتك مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين، مجادلاً من يخالفونك فيها برمهفات الألسنة وأسنة الأقلام.

أما السيف وآلات الحرب والقتال، فما لك ولها في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وإن كان الإسلام نحلة كنحل العالم، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ؛ فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب، كما قالوا.

ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد، و لم يكن من الإسلام في وِرْد ولا صدْر، لكن الأمر على خلاف ذلك، كما سوف تعرفه في ما يأتي في البيان.

وكذلك كَلِمة " الأمَّة "، فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية.

فالطائفة التي تكون " أمّة " بهذا المعنى لا يبعثها على استخدام السيف إلا أمران : إما أن يعتدي عليها ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة، وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة.

ففي الصورة الأولى منهما، لها سعة في الأمر، وهي لا تخلو من وازع خُلُقي يُلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها، وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً.

أما الصورة الثانية، أي الاعتداء على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب، فلا يُبيحُها غير بعض الجبابرة المسيطرين، حتى أن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأميركا أيضاً لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها.

حقيقة الجهاد

فإن كان الإسلام نِحْلة كالنحل الأخرى والمسلمون أمّة كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم أن " الجهاد " الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرَّة تاجها. لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم، بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العلمي.

(١) وردت في الأصل كلمة (مذهب) التي ترافقها لفظة (Religion) في الإنكليزية .

ومن هناك تعرف أن لفظ " المسلم " وصف للحزب الانقلابي العالمي الذي يكوّنه الإسلام وينظّم صفوفه ليكون أداة في أحداث ذلك البرنامج الانقلابي يرمي إليه الإسلام ويطمح إليه ببصره، والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية وإدراك هذا المبتغى.

والإسلام يتجنّب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهاجه العملي شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية، بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات خاصة، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة.

" فالجهاد " أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته فأنت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة " الحرب " وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال (War) في اللغة العربية، واستبدل بها كلمة " الجهاد " التي تؤدي معنى " بذل الجهد والسعي "، ويرادفها كلمة (Struggle) في اللغة الإنكليزية، غير أنّ لفظة " الجهاد " أبلغ منها تأثيراً وأكثر إحاطة بالمعنى المقصود.

فما الذي أفضى بالإسلام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة، صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟

والذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلاّ سبب واحد وهو أن لفظة " الحرب " كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشبُّ لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية. والغايات التي ترمي إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شحصية أو اجتماعية، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ.

وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب ؛ لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتّة، فإن الإسلام لا ينظر إلى مصلحة أمة دون أمة ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب، وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك، وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم، وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به إلى معارج الفلاح.

فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ومنهاج غير هذا المنهاج، يقاومها الإسلام ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً، ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الأمة التي ينتمي إليها القائمون بأمرها. فإن غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس بذلك راية عدوانه وفساده.

والإسلام يتطلب الأرض ولا يقتنع بقطعة أو جزء منها، وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الأرضية كلها، ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها، بعدما تنتزع من أمة أو أمم شتى، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما، وفضّله بهما على سائر الأديان والشرائع.

وتحقيقاً لهذه البغية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لإحداث انقلاب عام شامل، ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى، ويسمى هذا الكفاح المستمر واستنفاد القوى البالغ، واستخدام شتى الوسائل المستطاعة " بالجهاد ".

فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد.

وإذا عرفت هذا فلا يعجبك إذا قلت : أنّ تغيير وجهات أنظار الناس، وتبديل ميولهم ونزعاهم، وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مُرْهفات الأقلام نوع من أنواع " الجهاد "، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحدّ السيوف وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنّصفة أيضاً من أصناف الجهاد. وكذلك بذل الأموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب " الجهاد " العظيم.

في سبيل الله

لكن " الجهاد " الإسلامي ليس بجهاد لا غاية له ؛ وإنما هو الجهاد في سبيل الله، وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً. وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته، وإيضاح تعاليمه، كما أشرت إليه آنفاً.

وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على قبولها هو " الجهاد في سبيل الله "، وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يَسْمُوا بأنفسهم فوق ذلك ويُحلِّقوا في سماء أوسع من سمائهم، لكن الحق أن " سبيل الله " في المصطلح الإسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون وأسمي غاية، وأبعد مراماً مما يظنون بها ويزعمون، فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاء لمرضاة الله، لا تريد به مغنماً أو مكسباً في الحياة العاجلة، فهو في " سبيل الله " في نظر الإسلام.

فإذا أنفقت مما رزقك الله في وجوه الخير والبر ؛ تريد أن تعود عليك هذه المَبَرَّةُ بشيء من المنافع الأدبية أو المادية في هذه الدار الفانية ؛ فليس ذلك من سبيل الله في شيء، وأما إذا أسديت إلى مسكين أو معوز معروفاً لا تريد به إلا ابتغاء وجه ربك، فلا ريب أن ذلك عمل يعدُّ في سبيل الله، فهذا المصطلح الإسلامي الخاص – أي المصطلح في سبيل الله – يطلق على الأعمال التي تؤدى خالصة لوجه الله من غير أن يشوبها شيء من شوائب الأهواء والشهوات، يؤديها المرء معتقداً أن عمل الإنسان لسعادة إخوانه ينيله مرضاة الله تعالى، وأن غاية ما يتمناه الرجل من هذه الحياة الدنيا، وما يقوم به فيها من عمل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا غير.

فما قيّد الشارع " الجهاد " بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى، فالذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين، تبذل جهودها وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية، لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس، ولا تبتغي بها بدلاً في هذه الحياة الفانية، ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة، ولا يخطرنّ بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته، ويستبد بزمام الأمر، ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة بعد ما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم.

وها هو القرآن الكريم ينادي بملء صوته :

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت) [النساء : ٧٦].

والطغيان، حسب ما نصت عليه معاجم اللغة، هو مجاوزة الحد، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان، فهو طاغ، يقال : طغى السيل : ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة، ومنه ورد في التتريل :

(إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ) [الحاقة : ١١]، فاستُعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد، وكذلك إذا تجاوز الإنسان الحد وعلا في الأرض يفسد فيها ويستعبد الناس بالقهر والإكراه، يسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها، فذلك هو " القتال في سبيل الطاغوت " الذي ندّد به الله وجعله شعار الكفار ودَيْدَنَهُم.

أما القتال في سبيل الله، فهو الذي غايته أن يرفرف لواء القانون الإلهي العادل على العالمين وتعلو كلمته في الدنيا، بحيث يتبع المقاتل في سبيل الله ذلك القانون العدل بنفسه، وكذلك يحمل غيره من أفراد البشر على اتباعه وامتثال أوامره. وقد وعد الله الذين يقيمون الدين ويُعلون كلمته في أرضه ولا يعتون عن أمره، شأن المفسدين المتكبرين، وعدهم الدار الآخرة وسعادتها الأبدية، كما قال عزّ من قائل :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص : ٨٣].

وقد ورد في الحديث أنه قال أعرابي للنبي ﷺ : " الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله " **(٢)**.

وكذلك أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبيّ – رضي الله عنه – بإسناد جيد، قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له ؟ قال : " لا شيء له " فأعادها ثلاثاً، كل ذلك يقول : " لا شيء له ". ثم قال رسول الله ﷺ : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتُغي به وجهه " **(٣)**.

فتبين من ذلك أن الله لا يقبل من الجهاد إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم وابتغاء لمرضاته لا يشوبه شيء من الأغراض النفسية أو الطائفية والقومية، ومن ههنا تعرف ما لهذا الشرط – في سبيل الله – من أهمية عظيمة في المصطلح الإسلامي، وبذلك تدرك ما في تقييد الجهاد الإسلامي بهذا القيد من بعد المرمى وسمو الغاية، فأنت ترى أن كل حيوان خلقه الله في هذه الأرض مجتهد في سبيل نفسه، واصلٌ ليله بنهاره لإدراك غايته والوصول إلى مرماه، لكن المسلمين – أي الحزب الانقلابي الذي يدين بالإسلام ويؤمن بمبادئه الانقلابية – يؤمنون قبل كل شيء بأهم مبادئ الإسلام الانقلابية، بل أُسُسها وعمادها، ألا وهو أن ابذلوا مهجكم وأرواحكم وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل إقامة كلمة الحق وأعدّوا لمنازع الشر والطغيان كل ما استطعتم من عدة وعتاد، تدفعونها بقوتكم حيثما كانت، وتجتثون شجرة الفساد من جذورها مهما رسخت وتغلغلت عروقها في الأرض، وهكذا تواصلون

---

(٢) متفق عليه (سبل السلام شرح بلوغ المرام : ٣ ، ٦٦) ، وفي رواية عند مسلم عن أبي موسى : قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . (الصحيح لمسلم : كتاب الأمارة) .

(٣) سبل السلام : ٣ ، ٦٧ .

جهادكم (**حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه**) [الأنفال : ٣٩]. هذا ولا ينبغي أن تكون جهودكم ومساعيكم فـــي سبيل مطامعكم الدنيئة أو أن تكون أمة هي أربى من أمة وجنس أعلى من جنس.

الآن، وقد بينت في ما تقدم شيئاً من معنى " الجهاد الإسلامي "، ومغزاه الحقيقي الذي قلّما يتفطن له الناس في هذا العصر، أريد أن أصف " الدعوة الانقلابية " التي جاء بها الإسلام وتحدّى بها المجتمع البشري على اختلاف العصور والأزمان، وصفاً موجزاً مناسباً للموقف والمقام، حتى يكون القرّاء على بينة من الأمر ويعرفوا بسهولة ما في طبيعة هذه الدعوة من نزوع إلى الجهاد وافتقار إليه ويتيسر لهم إدراك غاية " الجهاد " ومرماه.

دعوة الإسلام الانقلابية

وقد تضمنت الآية الكريمة :

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ... الآية**) [البقرة : ٢١] لُباب هذه الدعوة، دعوة الإسلام الانقلابية، وجوهرها، فإنه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال أو الفلاحين أو الملاّكين أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع، ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم، وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة، ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري.

فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا ربًّا غيره، وكذلك يدعوهم أن لا يعتوا عن أمر ربهم ولا يستنكفوا عن عبادته ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق، فإن الحكم والأمر لله وحده، وبيده مقاليد السماوات والأرض، فلا يجوز لأحد من خلقه، كائناً من كان، أن يعلو في الأرض ويتكبر ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره، وينقادوا لجبروته، ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده، فيكونون سواء في هذه العبودية الشاملة، كما ورد في التتريل :

(**تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّه**) [آل عمران : ٦٤].

فهذه دعوة إلى انقلاب عالمي شامل، لا غموض فيها ولا إبهام، فإنه قد نادى بملء صوته :

(**إنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّه أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**) [يوسف : ٤٠].

فليس لأحد من بني آدم أن يُنصِّب نفسه ملكاً على الناس ومسيطراً عليهم، يأمرهم بما يشاء، وينهاهم عما يريد. ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى هو تكبُّر في أرض الله بغير الحق، وعتوّ عن أمره، وطموح إلى مقام الألوهية، والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وأمراء، إنما يشركونهم بالله، وذلك مبعث الفساد في الأرض، ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان.

وإذا أنعمت النظر في الأسباب التي تعدل بالإنسان عن الفطرة السليمة التي فطره الله عليها، وتصرفه عن منهاج الحياة المستقيم الذي أرشده إليه، وجدت أن مرجعها جميعاً إلى أنهم ينسون الله فينسون حقيقة أنفسهم، وذلك يستلزم أن يقوم رجال أو بيوتات أو طبقات من المجتمع — سواء من أسرّ القول ومن جهر به — يتبوؤون مناصب الحكم والقهر، فتفضي بهم هذه السيطرة أن يخرجوا عن

حدود الفطرة البشرية وتُسوّل لهم أنفسهم أن يستعبدوا الناس ويخضعوهم لجبروتهم قهراً، سواء أأعلنوا بذلك أم أخفوه في ضمائرهم.

هذا في جانب، وبجانب آخر يكون من نتائج هذا الجهل والسفه وعدم معرفة الإنسان لجلال الألوهية وجبروتها وجهله بقيمة المروءة والشهامة التي أودعتها الفطرة البشرية، يكون من نتائجها أن يرضى جزء غير يسير من الناس جبروتَ الطغاة المستكبرين وسيطرتهم، ويذعن لهم يحققهم في الأمر والنهي، وينقادوا لأوامرهم خاضعين.

وذلك هو أساس الفساد في الأرض، ومبعث البغي والعدوان والاستغلال الممقوت، ولذلك أتى الإسلامُ بنيانَهُ من القواعد، واجتثَّ شجرته من جذورها، ولم يدعْ في القوس منزعاً للريبة والشك، وها هو ذا يُندِّد به في آي من الذكر الحكيم محكمة، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها :

(**وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ**) [الشعراء : ١٥١ – ١٥٢].

(**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**) [الكهف : ٢٨].

(**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**) [هود : ١٨ – ١٩].

وهو يسائلهم : (**أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**) [يوسف : ٣٩].

فإن أبيتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد، دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا في الأرض، وتمادى بهم الطغيان فاتخذوا من أنفسهم آلهة وأرباباً من دون الله، ولن تتخلصوا من نير عبوديتهم أبداً، فإنهم، لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعيثون في الأرض فساداً، فإن ذلك من طبيعتهم التي طبعوا عليها، كما نطق بذلك لسان الوحي :

(**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**) [النمل : ٣٤].

(**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**) [البقرة : ٢٠٥].

ولا يغيبنّ عن بالكم في هذا المقام أن دعوة الإسلام إلى التوحيد وعبادة الله الواحد لم تكن قضية كلامية أو عقيدة لاهوتية فحسب، شأن غيره من النحل والملل، بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعي، أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنَّموا ذروة الألوهية، واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة، فمنهم من تبوّأ مناصب السَدَنَة والكهّان، ومنهم من استأثر بالمُلك والإمرة، وتحكّم في رقاب الناس، ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض، وجعل الناس عالة عليه، يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به، فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً.

وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية، وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم وينقادوا لجبروتهم، مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم، أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها، فقالوا : (**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**) [القصص : ٣٨]، و (**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**) [النازعات : ٢٤]، و (**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**) [البقرة : ٢٥٨]، و (**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**) [فصلت : ١٥]، إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً، وطوراً استعملوا جهل الدهماء وسفههم، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل، متوارين بأنفسهم من ورائها، يلعبون بعقول الناس ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم، وهم لا يشعرون.

فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد وتنديده بالكفر والشرك بالله واجتناب الأوثان والطواغيت، كل ذلك كان يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها والذين يجدون فيها سنداً لهم وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم.

ومن ثم، ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة وخاطبهم قائلاً : **(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)** [الأعراف : ٥٩] قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً، خرجت تقاومه وتضع في سبيل الدعوة العقبات، وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات، وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العز والجاه، المستبدين بمنابع الثراء من الذين يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام.

خصائص دعوة الإسلام الانقلابية

ومما لا مجال فيه للريب أن رسل الله الكرام – صلوات الله عليهم جميعاً – كانوا كلهم دعاة الانقلاب ورسل التجديد والتغيير، تجديد النظم السياسية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية وتغييرها تغييراً شاملاً، وأن النبي العربي الأُمي ﷺ سيد هؤلاء الدعاة وحامل لوائهم.

لكن الذي يفرق بين هؤلاء الرسل وغيرهم من دعاة الانقلاب في العالم، ويميزهم من بين أولئك تمييزاً بيّناً واضحاً، هو أن دعاة الانقلاب أو " الانقلابيين "، حسب العرف الشائع، مهما أوتوا من سداد الرأي وثقوب الفكر، ومهما بلغوا في صدق الطوية وحسن القصد، لا يمكنهم أصلاً أن يصيبوا هدف العدل الأسمى ويَزِنُوا الأمور بالقسطاس المستقيم، وذلك أنهم إما أن يكونوا قد نشأوا بأنفسهم في الطبقات المضطهدة في المجتمع أو أقاموا منتصرين للطبقات البائسة المضطهدة من حولهم، مطالبين بحقوقهم المغصوبة المهضومة، فينظرون بحكم أحوالهم إلى جميع المسائل والمشاكل بنظرة المنكوبين والطبقات البائسة المظلومة فتكون النتيجة أن نظرتهم إلى المسائل وطريق تفكيرهم في معضلات الحياة لا تبقى عادلة مبنية على موازين العدل والقسط العالمية الشاملة للناس جميعاً، فبينما تراهم يعطفون على طبقة ويبدون لها عواطف الولاء والمناصرة، إذا بهم يرمقون طبقة أخرى بعين الغضب والازدراء، ولا يخفون ما في قلوبهم من العداء والكره الشديد لها.

فكلما تفكروا في علاج حاسم لأدواء الجور والعسف والطغيان، غلوا وجاؤوا بدواء هو أشد من ذلك الداء جوراً، وأعرق منه في العسف، وأكثر طغياناً.

وجملة القول لهم أنهم لا يتسنى لهم بطبيعة أحوالهم وبيئاتهم – ولا يمكن أن يتسنى لهم – أن يطهروا قلوبهم من أدران العداء والانتقام، ويُزكُّوا نفوسهم من شوائب الحسد والبغضاء، فيضعوا نظاماً اجتماعياً مستنداً إلى أسس العدل وموازين الحق والقسط، يضمن سعادة البشر أجمعين.

أما الأنبياء ورسل الله الكرام – صلوات الله عليهم وسلامه – فلا يمكن أن يتطرق إلى دعوتهم وحركتهم الانقلابية شيء من عواطفهم الشخصية أو تشوب أعمالهم ومساعيهم شائبة من نوازع قلوبهم، وإن اضطهدوا في رسالتهم وأُوذوا في سبيل الحق، وأصابهم وأصاب أصحابهم وأتباعهم في سبيلها صنوف من الشدائد والأهوال، وكيف وهم قاموا برسالتهم بوحي من الله العزيز وأمر من عنده؟

والله تعالى شأنه وتباركت أسماؤه، متزّه عن نقائص العواطف البشرية، ينظر إلى خلقه بنظرة واحدة ما لطبقة من البشر من دالة عليه، ولا هو، جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه، يشكو طبقة أو يضمر لها سخطاً دون سائر الطبقات.

فكانت رسل الله الكرام بهداية من ربهم ينظرون إلى جميع المسائل ومشاكل الحياة الدنيا بعين الإنسانية الخالصة النقية. وكان جل همهم ومعظم تفكيرهم ماذا عسى أن يكون فيه سعادة الطبقات الجائرة نفسها أيضاً ؟ وكانوا يسعون دائماً وراء إيجاد نظام اجتماعي عادل، يتمتع في دائرته كل فرد بحقوقه المشروعة، متقيداً بالقيود اللازمة التي لا مندوحة عنها، حتى ينظم ما بين الفرد والجماعة من العلاقات على أسس الحق والعدل، يعطي كل واحد منهما نصيبه من الحقوق. وكذلك يلتزم كل واحد منهما ما عليه من الواجبات للآخر.

ومن ثم ترى أن دعوة الرسل الانقلابية لم تتحول قط إلى نزاع وتنافس بين الطبقات، فإنهم ما جدّدوا بناء الحياة الاجتماعية بأن يرفعوا طبقة ويضعوا أخرى مثلها أو يُسلّطوا بعض الطبقات على بعض في المجتمع، كلاّ، بل إنهم اختاروا طريقاً وسطاً وجددوا بنيان المجتمع على قواعد العدل والنصفة بحيث يتسنى في دائرتها لجميع أفراد الجنس البشري أن يتمتعوا بحقوقهم الفطرية، ويرتقوا بأنفسهم إلى معارج السعادتين المادية والروحية.

الحاجة إلى الجهاد وغايته

ولست في هذا المقام بصدد بيان تفاصيل هذا النظام الاجتماعي الذي جاء به الإسلام، والإحاطة بخصائصه ومزاياه، وكذلك ليس من الميسور استيفاء الكلام عنه ضمن هذه المقالة، فإن له موضعه، وسنتوخى البحث فيه والإحاطة بجميع نواحيه حين سُنوح الفرصة إن شاء الله تعالى.

والذي أردت تبيينه والكشف عن حقيقته بمناسبة الموضوع الذي نحن بصدده الآن هو أن الإسلام ليس مجرد مجموعة من العقيدة الكلامية وجملة من المناسك والشعائر، كما يُفهم من معنى الدين هذه الأيام، بل الحق أنه نظام كلي شامل يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها، ويستبدل بها نظاماً صالحاً ومنهاجاً معتدلاً يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً.

ودعوته في هذه السبيل، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء، عامة للجنس البشري كافة، لا تختص بأمة دون أمة، أو طائفة دون طائفة، فهو يدعو بني آدم جميعاً إلى كلمته، حتى أنه يُهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن تَعدّوا حدود الله في أرضه واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس، يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم، ويناديهم قائلاً : " لا تطغوا في الأرض، وادخلوا في كنف حدود الله التي حددها لكم، وكفوا أيديكم عما نهى الله عنه وحذّركم إياه. فإن أسلمتم لأمر الله ودنتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيراً وبركة، فلكم الأمن والدَّعَة والسلامة، فإن الحق لا يعادي أحداً، وإنما يعادي الحق الجورَ والفساد والفحشاء، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية، ويبتغي ما وراء ذلك مما لاحظ له فيه حسب سنن الكون وفطرة الله التي فطر الناس عليها.

فكل مَنْ آمن بهذه الدعوة وتقبّلها بقبول حسن، يصير عضواً في " الجماعة الإسلامية " أو " الحزب الإسلامي " لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسْود، أو الغني منهم والفقير، كلهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأمة على أمة أو لطبقة على أخرى. وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأمميّ الذي سُمِّيَ " حزب الله " بلسان الوحي.

وما أن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي أُنشئ لأجلها.

فمن طبيعته ومما يستدعيه وجوده أن لا يألو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أُسس بنيانها على غير قواعد الإسلام واستئصال شأفتها، وأن يستنفد مجهوده في أن يستبدل بها نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً، مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم " كلمة الله "، فإن لم يبذل هذا الحزب الجهاد المستطاع، ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم، وإقامة نظام الحق، نظام الحكم المؤسس على قواعد الإسلام، ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبيل، فاتته غايته، وقصر عن تحقيق البغية التي أُنشئ لأجلها، فإنه ما أُنشئ إلا لإدراك الغاية وتحقيق هذه البغية، بغية إقامة نظام الحق والعدل، ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد في هذه السبيل.

وهذه الغاية الوحيدة التي بيّنها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران : ١١٠].

ولا يظن أحد أن هذا الحزب – " حزب الله " بلسان الوحي – مجرد جماعة من الوعَّاظ المبشرين يعظون الناس في المساجد ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات، لا، ليس الأمر كذلك، وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده، ويكون شهيداً على الناس، ومن مهمته التي أُلقيت على كاهله من أول يوم، أن يقضي على منابع الشر والعدوان، ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت، وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة الذين تكبّروا في أرض الله بغير الحق، وجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله، ويستأصل شأفة ألوهيتهم، ويقيم نظاماً للحكم والعمران يتفيأ ظلاله القاصي والداني، والغني والفقير. وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه) [الأنفال : ٣٩].

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) [الأنفال : ٧٣].

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [التوبة : ٣٣].

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر، ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض، وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ويؤتي أكله إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

وأضف إلى ذلك أن هذا الحزب، بصرف النظر عما يرمي إليه من إصلاح العالم، وبث الخير والفضيلة في أنحاء الأرض كافة، لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته متمسكاً بمنهاجه، عاملاً وفق مقتضياته، ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر سائراً على منهاج غير منهاجه. وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص، لا يمكنه أن يعيش متمسكاً بمبدذه عاملاً حسب مقتضاه في ظل

نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها ويريد السير على منهاجها.

فإن رجلاً يؤمن بمبادئ الشيوعية إن أراد أن يعيش في بريطانية أو ألمانية (٤) متمسكاً بمبدئه سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيوعية، فلن يتمكن من ذلك أبداً، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية والنازية تكون مهيمنة عليه قاهرة بما أوتيت من سلطان فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلاً.

وكذلك إن أراد مسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الإسلام الخالدة وبودِّه أن يبقى مستمسكاً بمبادئ الإسلام، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية، فلن يتسنى له ذلك ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً، لأن القوانين التي يراها باطلة، والضرائب التي يعتقدها غرماً ونهباً لأموال الناس والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق وافتئاتاً على العدل، والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض، ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ويرى فيها هلاكاً للأمة يجد كل هذه مهيمنة عليه ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها.

فالذي يؤمن بعقيدة ونظام، فرداً كان أو جماعة، مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته، ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها، ويعتقد أن فيها سعادة للبشر، لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق.

إذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته أو يغفل عن هذا الواجب، فاعلم أنه كاذب في دعواه ولما يدخل الإيمان في قلبه، وبهذا المعنى ورد في التنزيل:

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ، لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) [التوبة: ٤٣ – ٤٥].

وأي شهادة أصدق ؟ وأي حجة أنصع وأبلغ من شهادة القرآن وحجته ؟ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلبّي نداء الجهاد، ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ؛ فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم، فهم في ريبهم يترددون. وهذا هو المقياس الذي يقاس به صدق المرء في عقيدته وإخلاصه لها.

فإن الذي يذعن لنظم الحكم القائمة على فكرة غير الفكرة التي يؤمن بها، كأنه يعلن للناس أنه كاذب في دعواه غير مخلص في عقيدته.

ومن النتائج اللازمة الفطرية لهذا الخضوع والإذعان أن يتزحزح مثل هذا الرجل عن عقيدته ويتدرج إلى الانحلال عن ذلك القليل من الإيمان الذي قد يكون باقياً في قلبه بعد الاستسلام للنظم الباطلة والخضوع لها، وذلك أنك بادئ ذي بدء تستسلم للنظم الباطلة، وقلبك غير مطمئن به، ثم يأخذ قلبك يستأنس بها يوماً بعد يوم حتى تطمئن بها وتسكن إليها وتحس من نفسك ميلاً وتشوقاً إليها.

(٤) كتبت هذه المقالة عام ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.

وهكذا تتدرج في الركون إليها والاستئناس بها إلى أن تكون عوناً لهم ومؤازراً في توطيد دعائم النظم الباطلة وتسيير دفة شؤونها، حتى يأتي عليك يوم وأنت لا تَضِنُّ ببذل النفوس والنفائس في سبيل إقامة صرح الآراء الباطلة وإحكام بنائها ولا تتحرج في الجهاد بنفسك وذات يدك تقويضاً لدعائم الإسلام وصداً للناس عن سبل الحق والعدل.

وإذا بلغ الأمر برجل إلى هذا الحد، فلا فرق بينه وبين الكافر إلا أن هذا مجاهر بعدوانه وذلك منافق مماذق يتسمى بأسماء المسلمين زوراً ورئاء الناس، ويقول ما لا يؤمن به كذباً وافتراء على الله.

وإلى ذلك أشار النبي ﷺ فيما روي عنه :

" والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسيء، ولَتَأطُرُنَّه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننّكم كما لعنهم " **(٥)**.

الانقلاب العالمي الشامل

لعلك تبينت مما أسلفنا آنفاً أن غاية " الجهاد في الإسلام " هو هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها، وهذه المهمة، مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام، غير منحصرة في قطر دون قطر، بل ما يريده الإسلام ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة.

هذه هي غايته العليا ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره، إلا أنه لا مندوحة للمسلمين أو " أعضاء الحزب لإسلامي " عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود والسعي وراء تغيير نظام الحكم في بلادهم التي يسكنونها.

أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل المحيط بجميع أنحاء الأرض، وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية، بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين، لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر، بل الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينها، ولا تغفل عنها طرفة عين، فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعتها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها.

فالحق يتحدى العقول البشرية التريهة ويقول لها مطالباً بحقه : " ما بالكم تقولون أن القضية الفلانية حق في هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلاً، ثم تعود تلك القضية نفسها باطلاً بزعمكم إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر بأذْرُع ".

الحق حق في كل حال وفي كل مكان، وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية.

الحق ظله وارف وخيره عام شامل لا يختص ببيئة دون بيئة ولا قطر دون قطر، فأينما وجد الإنسان مقهوراً، فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له، ومهما أصيبت الإنسانية في أبنائها

(٥) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه من طرق شتى ، راجع تفسير ابن كثير ، ج٢ ، ص٨٢ .

المستضعفين، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبّوا نداءها ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً.

وبهذا المعنى نطق لسان الوحي، حيث ورد في التتريل :

(وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا) [النساء : ٧٥].

وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية وأحدثت من نزعات الشتات والاختلاف، قد تشتمل على تلاؤم شامل وتجانس عام بين أجزائها، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في قطر بعينه حسب مبادئها وخطتها المرسومة المستبينة، ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ولا ترضى بالسير وفق مناهجها وبرنامجها.

ومن أجل ذلك وجب على الحزب المسلم، حفظاً لكيانه وابتغاء للإصلاح المنشود أن لا يقتنع بإقامة نظام الحكم الإسلامي في قطر واحد بعينه، بل من واجبه الذي لا مناص له منه لحال من الأحوال أن لا يدّخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض. ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامي في جانب وراء نشر الفكرة الإسلامية وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها، ويدعو سكان المعمورة على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين سعادتي الدنيا والآخرة. وبجانب آخر يشمر عن ساق الجدّ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة، إذا استطاع ذلك وأعدّ له عدته، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي.

هذه هي الخطة التي سلكها، وهذا هو المنهاج الذي انتهجه النبي ﷺ ومن جاء بعده وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين. فإنهم بدؤوا ببلاد العرب التي أشرقت شمس الإسلام من آفاقها، وأخضعوها أولاً لحكم الإسلام، وأدخلوها في كنف المملكة الإسلامية الجديدة، ثم دعا النبي ﷺ الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله، فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها، والذين لم يلبّوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن، شرع في قتالهم وجهادهم. ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية، مملكتي الروم والفرس اللتين بلغ من عُتُوّهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق.

وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق رضي الله عنه غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً.

هذا وقد ظن الجمهور من سكان مصر والشام وبلاد الروم والفرس في أول الأمر أن هذه الحملات المتتابعة من العرب وهذه الفتوحات العظيمة التي زادت العرب مجداً وأُبهة ؛ إن هي إلا من قبيل خطة الاستعباد والاستعمار، قد اختارها العرب وجعلوها شعارهم وديدنهم، شأن الأمم الجائرة التي سبقتهم في غابر الأزمان، فقد خُيِّل إليه بادئ ذي بدء أن مثل العرب في هذه الفتوحات والغزوات كمثل الأمم من قبلهم، خرجت من أرضها تستعبد الشعوب المستضعفة وتسوقهم بعصا القهر والعنف، وتتصرف في رقابهم وأموالهم تصرف راعي الإبل في ماشيته، ومن ثم ترى أنهم انضووا في أول الأمر

تحت لواء ملوك الروم والفرس، وتجندوا في جيوشهم، وبرزوا للقاء المسلمين وقتالهم. ولكنهم لما تبيّن لهم أمر المسلمين وما خرجوا من ديارهم لأجله، وعرفوا منهاج الانقلاب الشامل الذي يريدون تعميمه ونشر كلمته في أقطار الأرض كافة.

ولما ظهر لهم أن هؤلاء العرب لا يقولون بالقومية الجائرة، وأنهم ما تدنست أذيالهم بأرجاس الأغراض القومية، وأنهم ما نزحوا من بلادهم إلا لإقامة نظلم للحكم مؤسَّس على قواعد العدل والنصفة، وأنهم ما استلُّوا السيوف من أغمادها إلا للقضاء على الطبقات الغاشمة الجائرة التي استدت بموارد الثراء والرخاء من دونهم، وسامتهم أنواع الخسف والعذاب المهيمن تحت حماية النظم الكسروية والقيصرية، وتبوأت مناصب الألوهية عتواً واستكباراً في الأرض، لما تبين لهم كل ذلك وشاهدوا حال الغزاة الفاتحين بأعينهم، وتجلت لهم أخلاقهم الزكية الطاهرة، مالوا بطبعهم إلى الحزب الإسلامي وبدؤوا يتسللون من جيوش الروم والفرس، وإن اضطروا بعد ذلك إلى القتال فـــي صفوفهم أو ألجأتهم الأحـــوال إلى ذلك.

ومن ههنا تعرف السبب الذي ساعد المسلمين على الانتصارات الباهرة والفتوح العظيمة التي أحرزوها في أول عهدهم بالحروب والغزوات، ومن أجل ذلك ترى أنه لما رأى سكان هذه البلاد المملكة الإسلامية تسير وفق مبادئها على قوانين العدل والنصفة، وشاهدوا نظام الإسلام الاجتماعي يعمل عمله على مرأى ومسمع منهم، وعاينوا ما أجدى به ذلك النظام على بلادهم من الرفاهية والطمأنينة، جعلوا يُلبون دعوته ويدخلون زرافات ووحدانا في نظام ذلك الحزب العالمي، وينضوون تحت لوائه، إلى أن حملوا بأنفسهم تلك الراية، راية الإصلاح الشامل والانقلاب العالمي، وتقدموا إلى مختلف أقطار العالم النائية، يدعون أهلها إلى الدخول في كنف ذلك النظام الكافل لسعادة البشر والتمتع بخيراته وثمراته.

لا مساغ
لتقسيم الجهاد إلى الهجومي والدفاعي

هذا، وإذا تدبّرت ما بينته آنفاً وسبرْت غوره ؛ ظهر لك جلياً أن ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال إلى الهجومي (Offensive) والدفاعي (Defensive)، لا يصلح إطلاقه على الجهاد الإسلامي البتة، وإنما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط، لأن هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما إلا بالنسبة إلى قطر مخصوص أو أمة بعينها.

وأما إذا قام حزب عالمي مستند إلى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين أمة دون أمة، ولا تخص قطراً دون قطر، يدعو جميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها إلى فكرته ومنهاجه، مفتوحة أبوابه لكل من يريد المشاركة في بث تلك الدعوة، ونشر تلك الفكرة، ولا يسعى إلا وراء القضاء على الحكومات الجائرة المناقضة لمبادئ الحق الخالدة، وإقامة حكومة صالحة مؤسَّس بنيانها علىا قواعد الحق والعدالة التي يؤمن بها ويدعو إليها، أما إذا كان الأمر كذلك ؛ فلا مجال في دائرته ألبتة لما اصطلحوا عليه من نوعي القتال الهجومي والدفاعي.

وكذلك، إذا نظرنا في المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع، تبين لنا أنه لا ينطبق هذا التقسيم – إلى الهجومي والدفاعي – على الجهاد الإسلامي بحال من الأحوال، فإن الجهاد الإسلامي، إذا أردت الحقيقة، هجومي ودفاعي معاً، هجومي لأن الحزب الإسلامي يضادّ ويعارض الممالك القادمة على المبادئ المناقضة للإسلام، ويريد قطع دابرها ولا يتحرج في استخدام القوى الحربية لذلك، وأما كونه دفاعياً، فلأنه مضطر إلى تشييد بنيان المملكة، وتوطيد دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامجه وخطته المرسومة.

وغير خاف عليك أن الإسلام حزب (Party)، فليس له من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية، يذود ويُدافع عنها، وإنما يملك مبادئ وأصولاً يذبُّ عنها ويستميت في الدفاع عنها، وكذلك لا يحمل على " دار " الحزب الذي يعارضه ويناقضه، وإنما يحمل ويصول على المبادئ التي يتمسك بها ولا يغيبنّ عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته والإيمان بمبادئ الإسلام، وإنما يريد الحزب الإسلامي أن ينتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبادئ والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق، ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

حقوق أهل الذمّة

ومن ههنا تنحل عقدة أخرى طالما استعصى على الناس حلها، وأشكل عليهم أمرها، وذلك أن ما تقدم آنفاً من خصائص الجهاد الإسلامي وبيان مزاياه، يتضح به جلياً ما يمكن أن يكون من الحقوق في ضمن نطاق المملكة الإسلامية للذين لا يؤمنون بمبادئها، بل يدينون بمبادئ أخرى غيرها.

فالجهاد الإسلامي لا يتعرض لعقائد الناس ومناسكهم أو مناهج شؤونهم الاجتماعية التي اختاروها وآثروها لأنفسهم، فلهم الخيار في أن يدينوا بما شاؤوا من العقائد ولهم الحرية التامة في أن يختاروا ما استحسنوه من المناهج. لكنه لا يرضى أن تكون لهم الحرية في تسيير دفة الحكم على منهاج ما أنزل الله بن من سلطان.

وكذلك لا يسمح لهم ولا يعترف لهم بحق في أن تسير عقودهم ومعاملاتهم في دائرة المملكة الإسلامية على الطرق الفاسدة التي هي شرٌّ على المجتمع، وفيها خرابٌ للعمران، وإن كانوا قد تعودوها من قبل.

خذ لذلك مثلاً الربا، فإنه لا يلبث أن يتولى الحزب الحكم ويقبض على ناصية الأمر حتى يأمر بالقضاء عليه واستئصال شأفته وإيصاد جميع الأبواب التي يُخشى منها الوصول إليه.

وكذلك لا يبيح القمار، كائناً من كان، ولا يسمح للناس بأن يتعاملوا ويتعاقدوا بالطرق الفاسدة المحظورة في الشرع، دع عنك دور البغايا والمومسات، فإن الحكم الإسلامي يأتي بنيانها من القواعد ويقضي عليها في أول ما يقضي عليه من الموبقات الاجتماعية.

وعلى غرار ذلك يحثُّ غير المسلمات من النساء على التزام آداب الحياء والحشمة، ويمنعهن من تبرج الجاهلية، ويجبرهنّ على التقيد بالقيود اللازمة التي قررها الشرع في ستر عورات النساء.

وكذلك يراقب دور السينما والملاهي ويطهرها من أرجاس الخلاعة والفجور، ويوجهها وجهة الخير والرشاد، هذه وأمثالها من الشؤون الاجتماعية وغيرها، لا تسمح بها المملكة الإسلامية حفظاً

لمصالح المجتمع البشري وسعادته، بل ضنًّا بكرامتها وحرصاً على المحافظة على خصائصها ومقوماتها، لا تسمح لرعيتها من غير المسلمين أن يجروا على سننهم وتقاليدهم التي يعدها الإسلام خطراً على المجتمع، ومبعث شر وفساد للإنسانية، وإن أمكن أن لا يكون فيها غضاضة في شرائعهم ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من التعامل بها حسب عاداتهم وتقاليدهم.

والذي يظهر له في بادئ الرأي أن الإسلام قد جاوز في هذا الباب حدود التسامح واختار طريق الاضطهاد والتضييق، فما أجدر به أن يوازن بين ما عامل به الإسلام من التسامح وما عاملت به غيره من المذاهب الانقلابية أو الإصلاحية مخالفيها، فإن هذه الموازنة تظهر له الأمر الصُّراح وتبين الفرق العظيم الذي يجده بين الإسلام وغيره من المذاهب والنظريات في هذا الشأن، فإنه يرى أن المذاهب الانقلابية والاجتماعية الأخرى غير الإسلام قد بلغت من الاضطهاد والتضييق ملبغاً يكاد يضيق به ذرعاً من يخالفها في الفكر والرأي، حتى أنهم لا يرون لهم ملجأً إلا في الجلاء عن أوطانهم والتشرد في آفاق لأرض، أما الإسلام فبإزاء هذه المعاملة الشنيعة يضمن السلامة والدَّعة لكل فرد من أفراد البشر، كائناً من كان، ويهيء لهم فرص الرقي والازدهار في كل ناحية من نواحي الحياة، ويعاملهم بالحسنى مما لا تجد ولن تجد له نظيراً في العالم.

لا استعمار ولا استغلال

ومما يجب عليّ أن أعيد ذكره في هذا المقام أن " الجهاد " في نظر الإسلام لا يكون إلا " في سبيل الله "، وابتغاء وجه الرب تعالى وحده، فلا يجوز للمسلمين أبداً أن يحذوا حذو الملوك المستبدين والطغاة المستكبرين إذا أنعم الله عليهم بالنصر والفتح في جهادهم وغزواتهم، فإن المسلم لا يقاتل، ولا يجوز له أن يقاتل وهو مسلم، ليتبوأ عرش الكسروية ويُسخِّر البلاد والرقاب لمآربه ويرخي لنفسه العنان يعيش في رغد وينغمس في اللذات والشهوات، شأن الطغاة المستكبرين الذين يستغلون خيرات الأرض لأغراضهم، ويتخذون من عباد الله المستضعفين مطية أهوائهم وشهواتهم. لا، والله ما ذلك من الجهاد في سبيل الله في شيء. وإنما هو القتال في سبيل الطاغوت، والإسلام يتبرأ من مثل هذا الجهاد، وأمثال تلك الحكومات الغاشمة.

أما الجهاد الإسلامي فلا يزيد المسلمين إلا صبراً على المكاره، وزهداً في متع الدنيا ولذائذها، وفوق ذلك يكلفهم المشاق البالغة، ويروضهم على بذل النفوس والنفائس والتجرد من مطامع الدنيا وشهواتها في سبيل الله، وإذا أنعم الله على المسلمين بالفتوح وأيّدهم بنصر من عنده فامتلكوا ناصية الأمر، ودانت لهم الرقاب، فلا تسل عما يحسه من يتولى الحكم من بين المسلمين الصادقين من ثقل المسئولية وعبء الأمر، فإنه ربما تمضي عليه أسابيع وشهور لا يتمتع في النهار بالراحة، ولا يذوق لذاذة الكرى في الليالي حرصاً على مصالح الرعية، وتفقداً لأحوال العجزة المستضعفين منهم، وزد على ذلك أن الأمير المسلم لا يجوز له أبداً أن يتمتع بلذائذ الحياة الشهية، ويتنعم بأبهة الملك وفخفخة الإمارة، مكافأة على الجهود التي يبذلها في إصلاح شأن الملك، ومراقبة نظم الحكومة العديدة المتشعبة، مع أن الحكومات في الدنيا لا يتهافت الناس عليها وعلى التدخل في إدارتها وتسيير شؤونها إلا حرصاً على تلك الأبهة والفخفخة ولذائذ الحياة ومتعها، فالذي يتولى الأمر من بين المسلمين لا فضل له على سائر رعيته

إلا بالتقوى، ولا سلطان له عليهم إلا بأمر من الله ورسوله، فليس له أن يتبوأ عرش العظمة والجلالة ويتظاهر بعلو شأنه وارتفاع منزلته، ولا يجوز له أن يخضع رقاب الناس ويجعلهم يذعنون لجبروته، وكذلك ليس في مكنته أن يتقدم خطوة في طريق يعارض الطريق الذي أوضحت معالمه الشريعة الغراء، ويحرك ساكناً من غير مستند من كتاب الله وسنة نبيه، ولا يقدر أن يعفي نفسه أو أحد أصدقائه وذوي قرباه من حق جب عليه أداؤه لأي رجل، مهما يكن حقيراً أو صغيراً في المجتمع، وأيضاً لا يسوغ له أن يأخذ حبة من خردل أو يمتلك شبراً من أرض من غير أن يكون له حق فيها، وحرام عليه أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يفضل – ولو قليلاً – عما يقوم بأود حياة رجل من أوساط الناس. والمسكين – وما أحراه أن يسمّى مسكيناً، وأي رجل أحق بالشفقة، وأقرب إلى " المسكنة " من الذي يتولى أمر المسلمين، وهو محاط بهذه القيود الثقيلة – ليس له أن يشيّد الأبنية الشاهقة، ولا يباح له أن يتبسط في المعيشة أو يأخذ حظه من نعيم الحياة ويُلّهنية العيش، فإنه ما كان له أن يذهل عن واجباته ولو لمحة واحدة، ولا يسعه أن يغفل، ولا طرفة عين، عن اليوم الذي يحضر فيه بين يدي ربه ويحاسب على أعماله حساباً عسيراً.

وهذا الشعور بالمسؤولية، وهذه الخشية الإلهية، هي التي تملك عليه نفسه وأهواءه، وتشرف عليه في غدواته وروحاته.

فإن الحاكم المسلم يرى ويعتقد أنه محاسب بين يدي ربه على جميع أعماله، جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، فكأني به يتفكر في نفسه : ماذا يكون من أمري في ذلك اليوم العَسِر إذا خنت اليوم أمانة، أو اقتطعت ذراعاً من أرض، أو تكبرت في أرض الله بغير الحق، وظهرت مني بوادر الظلم والعسف، أو خالطت أعمالي شوائب الأثرة، واتبعت الهوى فيما أقوم به من عمل، يتفكر في هذه كلها، فيرتدع عنها ويمتنع خوفاً على نفسه من سخط الله وغضبه.

وأيم الحق أن الذي يطمع في الدنيا والتمتع بما فيها من لذات الحياة وأسباب العيش الرغيد، لا يتجاسر أبداً على أن يتولى أمر المسلمين بيده. وإذا رأيت أحداً يجترئ على ذلك، وبه من طمع الدنيا والافتنان بزخارف الحياة العاجلة ما لا يطيق دفعه، فاعلم أنه أخرق، قليل العقل، لا يعرف ما هو مقبل عليه، ولا يدري ما هو بصدده، لأن رجلاً من عامة رجال المسلمين يكسب رزقه بصناعة أو تجارة، كيفما كانت ضئيلة، هو أحسن حالاً، وأرغد عيشاً من ولي أمر المسلمين، فإنه يشتغل في نهاره، ويكسب أكثر مما يعطي خليفة المسلمين من بيت مال الحكومة، وينام ملء جفونه طوال الليل، لا يُقضُّ مضجعه شيء. وأما الخليفة المسكين، فلا حظ له من أسباب المعاش كحظ التاجر أو العامل، ولا يتاح له أن يذوق لذاذة الكرى كعامة الرجال.

هذا هو الفرق الجوهري أو الأساسي بين الحكومة الإسلامية وغيرها من الحكومات. فإن الطبقة الحاكمة في الحكومات غير الإسلامية تستبد بموارد الثراء، وتستغل خيرات الأرض لمآربها، وتتبوأ عرش الألوهية في أرض الله طغياناً وكفراً.

أما الحكومة الإسلامبة فهي بعكس هاتيك الحكومات الجائرة، فإن الطبقة الحاكمة في الحكومة الإسلامية، لا يكون من همها إلا إسداء المعروف إلى الرعية والترفيه عنهم من غير فرق بين عامتهم وخاصتهم، ولا تجعل نصيبها من موارد الدولة إلا كنصيب عامة الناس.

وإذا وازنت بين ما كان يمنح عمال الحكومة الإسلامية أو قضاتها وولاتها من الجرايات الشهرية، وبين ما كان يعطى أمثالهم من الحكومات المعاصرة لها من الرواتب الضخمة، أو ما يناله موظفو

الحكومات المستعمرة الحاضرة من المرتبات الباهظة، تبين لك ما بين غزوات الإسلام وفتوحه، وبين جشع التسلطية وخطتها الاستعمارية من الفوارق الروحية والجوهرية العظيمة.

فما كان لولاة المقاطعات الكبيرة أمثال خراسان والعراق والشام ومصر في الحكومة الإسلامية من الرواتب ما يناله اليوم موظف حقير في الحكومات الحاضرة، وناهيك مثلاً بأمير المؤمنين أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ فإنه كان يدبر شؤون مملكة واسعة، وله من بيت مال الحكومة ما لا تزيد قيمته على مائة روبية شهرياً، وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب، فما كان يأخذ لقوته وعياله أكثر من مائة وخمسين روبية شهرياً، مع أن خزانة المملكة في عهده تكاد تغص بما كان ينهال عليها من موارد الغنيمة وجبايات الأرض مما أنعم الله عليهم بالفتوح الباهرة في أراضي الروم وبلاد فارس، فالذي يظهر لأول وهلة أن الإسلام أيضاً يفتح الفتوح ويدوخ الأمصار والبلاد كالطغاة والمستعمرين، ولكنك حينما تنعم النظر تجد أن الفرق كبير بينهما في الجوهر والمبدأ والغاية :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى
يزيد سليم والأغر بن حاتم

وأين الثرى من الثريا والأرض من السماء ؟

هذه هي حقيقة " الجهاد " الذي أبدؤوا وأعادوا في تشويه سمعته، وتحريف كلمته، والذي طالما سمعتم فيه شيئاً كثيراً.

فإن قلتم : فأين الإسلام الذي بينت خصائصه فيما تقدم ؟ وأين " الحزب الإسلامي " الذي فصَّلْت القول في مقوماته وواجباته ؟، وفي أي أرض دفن تصور الجهاد الحقيقي الذي كشفت الغطاء عن وجهه آنفاً ؟ وما بالنا نجد بلاد المسلمين كلها خلواً من هذه الفكرة وذلك التصور الأسمى ؟

قلت : الذنب ليس بذنبنا، والتبعة في ذلك ليست علينا، إنما الذنب ذنب الذين حادوا بالمسلمين عن الصراط السوي وهدفهم الحقيقي، وعللوهم بالتعاويذ والتمائم والسبحات والرياضات، والذين منّوا المسلمين بالأباطيل والترهات ووعدوهم بطرق للنجاة سهلة تريحهم من أهوال الجهاد وشدائد الكفاح، فألجأوهم إلى قبور وزوايا ليتوسلوا بها وبرجالها إلى الغاية المنشودة من السعادة الأبدية، والتبعة على الذين شغلوهم عن أصول الإسلام ومبادئه الكلية الشاملة وصرفوا بأبصارهم إلى مسائل من فروع الفقه لا تنقع من صدى ولا تسمن من جوع في حل قواعد الإسلام، حتى نسوا ما خُلقوا لأجله، وذُهلوا عن الغاية السامية التي يدعو إليها الإسلام وجعلوها نسياً منسياً. وإن أردت الاستزادة من أسباب تقلص ظل الإسلام وضؤولة نفوذ الحزب الإسلامي اليوم، فارجع بصرك إلى الأمراء والزعماء والقواد الذين يظهرون إيمانهم بكتاب الله وبرسوله ﷺ ولكنه مما يؤسف له أنهم لا يرون من حق الكتاب العزيز والشريعة التي جاء بها النبي الأمي العربي ﷺ على أنفسهم غير أن يشتركوا في حفلات المولد النبوي تارة وأن يدعو تارة أخرى بعض حفّاظ القرآن ليقرأوا ختمة أو ختمتين في بيوتهم ترفيهاً عن أرواح ذوي قرباهم، وإن سمت بهم أنفسهم، ألقوا خطباً في تمجيد الإسلام والثناء على تعاليمه، كما يثني الناس اليوم على الشعراء ويكيلون لهم المدح جزافاً، أما العمل بهذه الشريعة والسعي وراء تنفيذها في العالم،

فليسوا من ذلك في ورد ولا صدر، بل يحسبون أنفسهم كأن الله لم يكلفهم بشيء من ذلك، وأن نفوسهم غير مستعدة أصلاً للتقيد بهذه القيود وتحمل أعباء هذه المسؤوليات التي كلف الله بها عباده والتي يلقيها الإسلام على الذين يؤمنون به ويُدْعَوْن أتباعه، فإنهم يتمنون حياة رغيدة ويبتغون طريقاً للنجاة سهلاً.

وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين ، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

